الاستلزام التخاطبي في الأمثال العربية
كتاب مجمع الأمثال للميداني أنموذجا

د٠ عبدالله بن سعد بن فارس الحقباني(*)

المقدمة:

تعدّ نظرية الاستلزام التخاطبي من أهمّ النظريات التداولية المعاصرة. وبالرغم من أن هذه النظرية هي امتداد لجهود سابقة أهمّها منجزات أوستين في مجال الأفعال الكلامية أساسا، فإنّ ما قام به الفيلسوف الإنكليزي بول غرايس Paul Grice (١٩١٣–١٩٨٢) يعدّ إنجازا هامّا في مجال التواصل الكلامي، فهو من وضع أسس نظرية الاستلزام وحدّد أهم آليات الاستفادة منها في تحليل الخطاب.

ويمثّل مبدأ التعاون أهم ركيزة تُميّز هذه النظرية التي تفرعت عنها العديد من القواعد التي ضبطها غرايس في إطار أعماله التطبيقية حين حاول أن يجري تصوراته على الخطابات التي درسها.

ونظرا لاتساع المجالات التخاطبية، وتنوّع المدونات التي يمكن أن نجري على نصوصها تطبيقات نظرية الاستلزام التخاطبي، فقد اختار الباحث مدونة الأمثال العربية التي جمعها الميداني في كتابه "مجمع الأمثال" أنموذجا للتطبيق.

وهذه الدراسة جديدة في تناولها، نظرا لأن أكثر الدراسات السابقة –حسب اطلاع الباحث – قد درست الموضوع دراسة تقليدية أو دراسة حديثة، فالدراسات التقليدية مثل الدراسة التركيبية أو البلاغية أو التاريخية، وأما الدراسات اللسانية الحديثة فقد تناولتها من جوانب مختلفة وعديدة، لكنها لم تتناولها كما تناولتها هذه

(*) أستاذ اللسانيات المشارك في قسم اللغة العربية بكلية الآداب – جامعة الملك فيصل بالأحساء.

afs_٩٩@hotmail.com

الدراسة، وبخاصة فيما يتعلق بخرق المثل لقواعد الاستلزام التخاطبي في الدراسة التطبيقية، معتمدا في توضيح ذلك على المنهج الوصفي التحليلي.

وقد تدرجت الدراسة من تصورات القدماء لموضوع الاستلزام من أجل الوقوف على مدى وعيهم بالقضية، وذلك بالتوقف عند تصورين اثنين: الأوّل لعبد القاهر الجرجاني، وذلك في معرض دراسته لنظرية النظم، والثاني للسكاكي من خلال كتابه "مفتاح العلوم". ثمّ تناول البحث المسألة من منظور التداولية بوصفها الإطار النظري الحاضن لمفهوم الاستلزام التخاطبي، وكذلك بعض المسائل الخلافية بين الدارسين ولاسيما من جهتي المصطلح والمفهوم. ووقع التركيز على تصور بول غرايس بوصفه المؤسس الأبرز لنظرية الاستلزام التخاطبي وما يقترن بها من قواعد التواصل وشروطه.

ثم كانت بعد ذلك الدراسة التطبيقية بالبحث في نماذج من الأمثال العربية عن مظاهر خرق المتكلّم لقواعد التواصل، وما ينتج عن ذلك الخرق من بروز ظاهرة الاستلزام التخاطبي.

١- وعي القدماء بظاهرة الاستلزام التخاطبي:

لقد درس العرب القدامى الظواهر اللغوية دراسة مستفيضة، ودقّقوا النظر في مختلف الأبنية اللغوية التي يستعملها المتكلّم، وميّزوا في وجوه الدلالة بين ما يكون منها صريحا وما يكون منها مضمرًا، وحاولوا إبراز الحدود بين الحقيقة والمجاز. ومن الواضح أن المعنى الصريح للكلام إنّما تدّل عليه الألفاظ بذاتها، أما الضمني منها فيهتدى إليه بالنظر في السياق.

ولقد شغل المجاز في اللغة الفلاسفة والفقهاء والأدباء والنقاد واهتمّ به بشكل أخصّ النحاة والبلاغيون، أي أن المجاز كان عند القدماء محلّ تقاطع بين حقول معرفية مختلفة. وتعدّ دراسة عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ هـ) لمسألة النظم مثالا دالاّ على مدى التعمّق في المسائل اللغوية والدلالية، حتّى إنّ بعض الدارسين يرى

أنّها تكاد تضاهي "النظريات اللغوية في الغرب وتفوق معظمها في مجال فهم طرق التركيب اللغوي"(١). ولنا في كتاب "دلائل الإعجاز" أمثلة عديدة تكشف وعي الجرجاني بمسألة الدلالة غير المباشرة، من ذلك أنّه عقد فصلا بعنوان "في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره"(٢). والناظر في كلام الجرجاني في هذا الفصل يرى أنّه غير بعيد عن مسألة الاستلزام التخاطبي، فقد عالج من خلال بعض الأمثلة كيف تتحوّل الدلالة اللغوية من المعنى المباشر إلى دلالة استلزامية غير مباشرة، ومن الأمثلة التي توقّف عندها قولهم على سبيل الكناية: هو طويل النجاد، يريدون طويل القامة، كثير الرماد، أي هو رجل كريم، ونؤوم الضحى ويقصدون امرأة مترفة، ثمّ يعلّق على ذلك فيقول: "فقد أرادوا في هذا كلّه كما ترى معنى ثمّ لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنّهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود وأن يكون إذا كان. أفلا ترى أنّ القامة إذا طالت طال النجاد، وإذا كثر القرى كثر رماد القدر، وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى"(٣).

والواضح من كلام الجرجاني أنّه يميّز بين ضربين من المعنى: ضرب أوّل يُحمل فيه المعنى على ظاهر اللفظ، فلا يتعدى الدلالة الصريحة المباشرة التي يصل إليها المتلقي بلا واسطة. وضرب ثان يكون معناه مستخرج من المعنى الأوّل ولكنه يختلف عنه من جهة كونه مرتبطا بالتفكير، وهو يوافق عنده معنى المعنى. وإذا كان المعنى الأوّل ظاهرًا لا يجد المتلقي عسرًا في الوصول إليه، فإنّ معنى المعنى يستوجب التفكير والتأويل، حيث يفضي بك المعنى الذي حصلت

(١) تمام حسّان، اللغة العربية معناها ومبناها، القاهرة: عالم الكتب، ط٣، سنة، ١٩٩٨، ص١٨

(٢) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تصحيح محمد عبده ومحمد محمود الشنقيطي، بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٩٩٥، ص٦٠.

(٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

عليه إلى معنى آخر أو معانٍ جديدة غير متوقعة، ذلك أن اللفظ الواحد يمكن أن تتعدّد دلالاته فتحصل منه معانٍ كثيرة غير التي ظهرت أوّلا، ويوضّح الجرجاني فكرة تعدّد المعاني للكلام المفرد بقوله: "اعلم أن الفائدة تعظم في هذا الضرب من الكلام، إذا أحسنت النظر فيما ذكرت لك، من أنك تستطيع أن تنقل الكلام في معناه من صورة إلى صورة من غير أن تغير من لفظه شيئا، أو تحول كلمة من مكانها إلى مكان آخر، وهو الذي وسع مجال التأويل والتفسير حتى صاروا يتأولون في الكلام الواحد تأويلين أو أكثر"(١).

ويقدّم الجرجاني من القرآن الكريم مثالا للتوضيح هو قوله تعالى: "واشتعل الرأس شيبا"(٢)، فإذا رام المتكلم الوقوف بالخطاب عند المعنى الأول الصريح الذي لا عسر فيه فإنّ الكلام يُحمل على أساس أن شيب الرأس قد احترق، وفي هذه الحالة "تفقد الجملة حسنها وفخامتها وروعتها"(٣)؛ لأن المتكلم يكون قد حمل المعنى على ظاهر لفظه. أمّا إذا أراد معنى المعنى فعليه أن يجري الكلام على المجاز، فيكون بذلك قد انتقل من المعنى الصريح إلى المعنى الضمني. أمّا المعنى المجازي فقد وضّحه الطاهر بن عاشور عند تفسيره سورة مريم وهو يقول: وقد شبّه عموم شيب شعر رأسه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم بجامع انتشار شيء لامع في جسم أسود تشبيها مركبا تمثيليا قابلا لاعتبار التفريق في التشبيه وهو أبدع أنواع المركب، فشبّه الشعر الأسود بفحمِ والشعر الأبيض بنار على طريق التمثيلية المكنية ورمز إلى الأمرين بفعل اشتعلً(٤).

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٤٣.

(٢) سورة مريم الآية ٣١.

(٣) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٨٢.

(٤) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر والتوزيع، ١٩٨٤، جزء ١٦، (تفسير الآية ٤ من سورة مريم) ص ٥٦- وما بعدها.

وليس بعيدا عن تصوّر الجرجاني ما قاله أبو يعقوب السكاكي ت٦٢٦ هـ ، ولا يختلف عنه إلاّ من جهة واحدة تقريبا، وهي أن أبا يعقوب قد تأثر بشكل واضح بتصورات المناطقة، مؤكدا في ذلك على الجانب العقلي في عملية التخاطب والاستدلال. فالعقل في نظر السكاكي يضاهي الاستدلال المنطقي عند الفلاسفة وعلماء الكلام. ومن هذا المنطلق فإنّ اللفظ يمكن أن يفيد معنى وضع له في الأصل ويفيد معاني أخرى مستعارة أو مكنى عنها. أمّا العلاقة بينهما فهي من جنس علاقة اللازم والملزوم. وهو المعنى نفسه تقريبا الذي سنجده عند غرايس حين تحدّث عن الاستلزام التخاطبي ومقولة الاقتضاء تحديدا. ذلك أن العلاقة بين المعاني هي بالضرورة علاقة لزوم متبادلة، والواحد منها يقتضي الآخر ويستدعيه أو يتداعى له في سياق تخاطبي تواصلي معين. يقول السكاكي موضحا تصوره لهذه العلاقة: "لا يخفى أن طريق الانتقال من الملزوم إلى اللازم طريق واضح بنفسه، ووضوح طريق الانتقال من اللازم إلى الملزوم إنما هو بالغير وهو العلم بكون اللازم مساويا للملزوم وأخص منه"(١). ومعنى ذلك أن العلاقة بين المعاني تقوم على التبادل والتكامل والتناسب. وقد أجرى تصوره هذا على علوم البلاغة، واستدل على موقفه من خلال دراسة الوجوه البلاغية على غرار التشبيه والاستعارة والكناية.

ويرى السكاكي أن تشبيه الشيء لا يكون إلا وصفا له بمشاركته المشبه به في أمر، والشيء لا يتصف بنفسه، كما أن عدم الاشتراك بين الشيئين في وجه من الوجوه يمنعك محاولة التشبيه بينهما"(٢). ويعرّف المجاز على أساس أنّه الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالا في الغير بالنسبة إلى

(١) للتوسع انظر: السكاكي، مفتاح العلوم، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط،٢ ،١٩٩٠، ص١٨٣

(٢) السكاكي، مفتاح العلوم ، ص ١٨٤.

نوع حقيقتها مع قرينة مانعة من إيراد معناها".[١] أمّا الكناية فهي "ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك"[٢]. وبهذا المعنى فإنّ الكناية هي ترك للتخاطب بظاهر اللفظ وعدول عن التصريح بما يظهر في الكلام وذهاب إلى ما تخفيه الأبنية اللغوية والبلاغية، ومن هنا ينبغي أن لا نقف عند المعنى الحرفي لعبارة "كثير الرماد"؛ لأنّ المتكلم لا يقصد ذلك المعنى الظاهر بقدر ما يقصد المعنى الخفي، وهو في هذا السياق "الكرم". وحين ننظر في "مفتاح العلوم" نلاحظ أن السكاكي يقدّم مسارا استدلاليا يوضّح هذا العدول باللفظ من المعنى الصريح إلى المعنى المستلزم على النحو التالي:

كثرة الرماد ← كثرة إحراق الحطب

كثرة إحراق الحطب ← كثرة ما يطبخ

كثرة ما يطبخ ← كثرة الأكلة

كثرة الأكلة ← كثرة الضيوف

كثرة الضيوف ← رجل مضياف

رجل مضياف ← **إنسان كريم**

وإذا كانت هذه الجملة الخبرية قد خرج فيها اللفظ عن المعنى الذي وُضع له في الأصل، ودلّ المعنى المستلزم فيه على قيمة الكرم المستوحاة من السياق التخاطبي، فإنّ هذا العدول يمكن أن نعثر عليه في أبنية أخرى غير الخبر على نحو ما يظهر ذلك في بعض الأساليب الإنشائية كالاستفهام في قوله تعالى: "ألم تر كيف فعل ربك بعاد؟"[٣]، أو في قوله: "أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه؟"[٤]،

(١) المرجع نفسه، ص ١٩٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٩.

(٣) سورة الفجر، الآية ٦.

(٤) سورة المائدة، الآية ٧٤.

فلا يخفى أن في الاستفهام تعجيبا من إصرارهم على الكفر، وتفسير ذلك أنّهم لا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة، والأقاويل الباطلة فلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه"(١).

إنّ هذه النماذج وغيرها إنّما هي أدّلة على وعي القدماء بأن الألفاظ لا تدلّ دائما على معانيها المعجمية المباشرة، بل تفيد في سياقات مختلفة دلالات ضمنية يقصد إليها المتكلّم من خلال التصرّف في الأبنية اللغوية. وقد انتبه اللغويون وعلماء البلاغة القدامى إلى أن تلك الاستعمالات الخاصة لا يتوقّف دورها عند الغاية التواصلية، فهي تحقق للخطاب إضافة جمالية، خاصّة إذا أحسن المتكلّم نسج الكلام وخرج عن الحدّ الذي وضعت له الألفاظ في الأصل وعدل بها عن المعاني الصريحة.

٢– الاستلزام التخاطبي في النظرية التداولية الحديثة:

ركزت البحوث التداولية في سياق عنايتها بعمليات التخاطب على مسألة التناسب بين التعابير اللغوية بمختلف أشكالها من جهة وسياقاتها المرجعية الكثيرة من جهة أخرى. وإذا كانت التداولية تعتني أساسا بدراسة اللغة في الخطاب فهذا يعني أنّها "دراسة للغة بوصفها ظاهرة تخاطبية"(٢)، وهذا يعيدنا مباشرة إلى خاصية أساسية في اللغة وهي أنّها ظاهرة اجتماعية تواصلية. ومن المفيد الإشارة في هذا السياق إلى أهمية الجهود اللغوية التي أنجزها الفيلسوف شارلز موريس في فترة الثلاثينيات من القرن العشرين، وذلك في إطار دراسته لعمليات التواصل اللغوي بين المتخاطبين. وقد نبّه على ضرورة العناية بالعلامة اللغوية باعتبارها

---

(١) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم في مزايا القرآن الكريم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د–ت، ص ٦٧.

(٢) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دمشق: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٧ ، ص١٧.

مدخلا لإدراك محتويات العملية التواصلية برمتها. فالتعابير التي يستخدمها الناس ويتواصلون بها هي التي تساعد على فهم طبيعة التواصل بينهم وتعطيه دلالة مميزة.

وتقوم التداولية باعتبارها علما أخذ على عاتقه تحليل الظواهر اللغوية والعناية بأدّق تفاصيلها على مجموعة من المرتكزات أو المقومات أهمّها في نظر الدارسين الفعل الكلامي ومتضمنات القول والتناسب بين المرجع والتعابير الرمزية فضلا عن ظواهر أخرى. والذي يعنينا من كل ذلك هو ظاهرة الاستلزام التخاطبي(١). فإذا كانت الأفعال الكلامية مهمّة في إطار عملية التخاطب، فإنّه لا ينبغي أن نكتفي من اللغة– حسب أوستين– بما تخبرنا عنه أو تصفه لنا عباراتها وتراكيبها وصورها؛ لأنّ ذلك سيجعل منها مجرّد ناقل أمين للأخبار أو واصف دقيق للصور. والحال أن مجال اللغة أوسع من الإخبار والوصف معا.

إنّ اللغة ليست للإخبار والوصف فحسب وإنّما هي أداة عمل، أو هي السبيل لإنجاز أعمال ممكنة. ومن هذا الباب نفذ أوستين إلى اللغة وتعامل معها على أساس كونها ذات وظيفة تداولية، فركّز بذلك على الجانب الاستعمالي البرغماتي للكلام. فهو يرى أن موضوع الدراسة التداولية ليس الجملة وإنّما إنتاج التلفظ في مقام التخاطب. وهو يعني بذلك ضرورة الانتباه إلى الجانب العملي في اللغة وعدم التعويل كثيرا على نقل الأخبار أو وصف الأحوال؛ لأن الأصل في لغة التخاطب كونها فعل كلامي منجز أو ينبغي إنجازه. ويتفق جونليونز مع أوستين في هذا

(١) استعملت عبارة الاستلزام التخاطبي في العديد من البحوث والدراسات المعاصرة، وقد استخدمها على سبيل التمثيل لا الحصر طه عبد الرحمن، في كتابه " في أصول الحوار وتجديد علم الكلام"، واستعملها ثروت مرسي في كتابه "التداولية الاستدلالية"، كما استخدمها عزّ الدين المجدوب في ترجمة القاموس الموسوعي للتداولية لآنرب ولوجاك، وغير هؤلاء كثير.

الرأي، إذ يقول: "لقد كان هدف أوستين في البداية على الأقل أن يتحدى ما كان يعتبر مغالطة وصفية، وهي فكرة أن الوظيفة الفلسفية المهمة الوحيدة للغة هي إنتاج عبارات خبرية صادقة أو كاذبة، وعلى نحو أدّق كان أوستين يتهجم على رأي عالم التحقق المرتبط بالفلسفة الوضعية المنطقية التي تفيد أن الجمل تكون ذات معنى فقط إذا كانت تعبر عن قضايا يمكن التحقق منها أو تفنيدها"(١).

لقد انتبه علماء التداولية إلى أنّ أبرز خاصية للغة التي يستعملها الناس في مخاطباتهم المختلفة أنّها تحتوي على وجهين: وجه ظاهر صريح وآخر خفي ضمني. ومن الأكيد أن لكلّ وجه من هذين الوجهين دلالات ومعاني خاصة به متصلة بمقام التلفظ ومواضعاته المختلفة. ويتّصل مفهوم الاستلزام التخاطبي بالجانب الضمني الخفي في اللغة، وقد تبلور هذا المفهوم في محاضرة بول غرايس "الافتراض المسبق والاقتضاء التخاطبي" التي ألقاها في جامعة هارفرد سنة ١٩٧١. واستعمل غرايس مصطلح "الاستلزام الحواري" أو التخاطبي، وبيّن أنه يقوم على مفهوم الاقتضاء. ومعنى ذلك أن المتكلم يورد في خطابه عبارات ويوحي بها إلى فعل شيء دون أن يقصد المعنى الظاهر الذي ليس من غايته، بل إنّ الجملة التي يوردها تقتضي دلالة أخرى غير دلالتها الظاهرة.

فالاستلزام التخاطبي إذن هو: "عمل المعنى أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، إنّه شيء يعنيه المتكلم ويوحي به ويقترحه ولا يكون جزءا مما تعنيه الجملة بصورة حرفية"(٢).

---

(١) انظر: جون ليونز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، بغداد: الشؤون الثقافية العامة– آفاق عربية، ط١ ، ١٩٨٧، ص١٩.

(٢) صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، القاهرة: الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ص٧٨.

وينطلق بول غرايس من فكرة أساسية مفادها أن محاورات الناس تتضمن ضربين من المعاني: ضرب أوّل ليس هو المراد وهو الذي لا يتجاوز فيه اللفظ ظاهر معناه. وضرب ثان خفي لا يظهر بشكل صريح، أي أنّه يميّز بين ما يقول المخاطب وما يقصده في سياق خطابه. فمنطلق العملية التخاطبية عند غرايس تتمثّل في كون الناس "قد يقولون في حواراتهم ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون فجعل كل همّه إيضاح الاختلاف بين ما يقال وما يقصد"(١).

ويرى غرايس أن عملية التواصل بين المتحاورين يحكمها مبدأ "التعاون" الذي يقتضي "أنّ المتخاطبين عندما يتحاوران إنما يقبلان ويتبعان عددًا معينًا من القواعد الضمنية اللازمة لاشتغال التواصل"(٢). ويتحقق مبدأ التعاون باحترام المتحاورين لأربع قواعد أساسية حسب غريس، هي:

– **قاعدة الكم:** وتتعلّق بكمية الكلام التي ينبغي أن يستعملها المخاطب في خطابه، فمن المستحسن أن يوجز المتكلم لغة كلامه ويقتصد فيها حتى يصيب من ذلك مراده فلا يثقل خطابه بالزوائد التي لا طائل من إيرادها.

– **قاعدة الكيف:** وهي أن يتوخى المخاطب الصدق في أقواله، فلا يتزيّد في القول ولا يكذب، بل عليه أن ينتقي كلمات خطابه فلا يوفر منها إلا ما يلزم، فيكون الكلام على قدر الحاجة، فلا يقول المخاطب ما لا يعلم وإن كان علمه به قليلا، وبذلك يضمن لخطابه مقدارا من المصداقية والقبول فلا ينفر منه المتلقي.

– **قاعدة التلاؤم:** توجد تحت هذه المقولة قاعدة واحدة مفادها: كن ملائما، والمقصود بالتلاؤم هو أن يراعي المتكلم في سياق خطابه مبدأ التناسب بين اللفظ

---

(١) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، القاهرة: دار المعرفة الجامعية الجديدة، ٢٠١١، ص٣٣.

(٢) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص ٨٤.

الذي يستعمله المتكلم والمقام الذي تتم فيه عملية التخاطب. فلما كانت اللغة تقوم على ضرب من الفاعلية العقلية فإنّ الالتزام بهذه القاعدة يسهم بشكل من الأشكال في تسهيل عملية التواصل بين مخاطب يتلفظ بكلام معين يريد به تحقيق غاية أو جملة من الغايات، وبين سامع يتلقى ذلك الخطاب وله بدوره أهداف ومقاصد. فكلما كان المخاطب ملتزما بهذه القاعدة فإنّه يضمن حظوظا أوفر لنجاح خطابه.

– **قاعدة الجهة:** والمقصود بذلك أن يتجنّب المتكلم الغموض في الكلام وأن يحترز منه، فلا يبهم خطابه، بل عليه أن يكون موجزا يرتب ألفاظه ترتيبا جليّا. فأفضل الكلام ما كان صاحبه عارفا سبيل القصد مدركا لطبيعة المسار التواصلي متحكما فيه، وهذا لا يستقيم له إلاّ متى كانت له وجهة واضحة المعالم بيّنة الغاية.

إن ما يحققه الالتزام بقواعد مبدأ التعاون يتمثّل في نجاح عملية التخاطب وتحقّق مقاصدها، أمّا إذا خرق المتكلّم هذه القواعد فينتج عن ذلك التعبير معنى ضمني غير الذي يوحي به ظاهر الألفاظ، وهذا ما سماه غريس بالاستلزام التخاطبي.

ولمفهوم الاستلزام التخاطبي أهمية بالغة على مستوى التحليل الإجرائي للخطاب، ولعلّ ذلك ما جعل الكثير من الدارسين ينوّهون بمجهودات غريس ويعدّونها فتحا جديدا في اللسانيات، وقد حدا ذلك بآنرويول وجاك موشلار إلى القول " إنّ غرايس كان يسلك الطريق الصحيح لأنّ نظامه لا يقوم حصرا على رؤية ترميزية للغة. وهو يستعمل – ولو بكيفية صريحة جزئيا– عمليات استدلالية في توليد الإستلزامات الخطابية"(١).

(١) آن روبول، و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط١، سنة ٢٠٠٣، ص ٦٦.

ويؤكّد صلاح إسماعيل ذلك بالقول: "وينظر أنصار العلم المعرفي الآن إلى محاولة غرايس على أنّها جزء من مشروعهم الكبير لتقديم تقرير فيزيائي أو بيولوجي عن العقل والمعنى سواء بسواء"(١). كما تؤكّد هبية حمو الحاج في إطار دراستها للملامح المعرفية في تصور غرايس أهمية ما توصل إليه هذا اللساني ولاسيما من جهة حضور الجانب المعرفي في موضوع الاستلزام التخاطبي إذ تقول: "ويظهر الجانب المعرفي أكثر في عنصر الاستلزام التخاطبي"(٢). ويظهر هذا الجانب أساسا في عمليات التأويل المختلفة التي يقوم بها المتلقي إزاء المخاطبات التي يصنعها المخاطب في سياق عملية التواصل.

٣- أنواع الاستلزام التخاطبي عند بول غرايس:

ميّز غرايس بين ضربين من الاستلزام؛ ضرب أوّل يظهر في الألفاظ ويسميه بالاستلزام العرفي أو الوضعي، وضرب ثان يسميه الاستلزام التخاطبي. وهو على نمطين واحد محادثي والآخر غير محادثي، والمحادثي نفسه يفرعه إلى فرعين معمّم ومخصّص. ويمكن أن نختزل هذا التصنيف في الرسم البياني التالي:

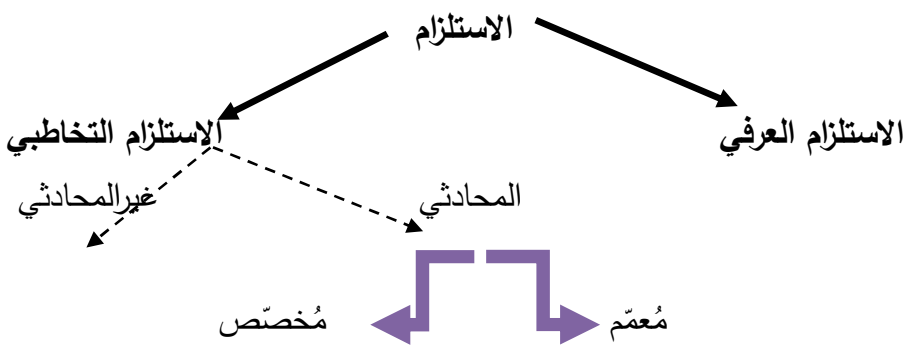

(١) صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، القاهرة: دار قباء الحديثة للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ص ٤٠-٤١.

(٢) ذهبية حمو الحاج، مدخل إلى التداولية، مجلة الكوفة، العدد التاسع، سنة ٢٠١٤، ص ١١٥.

يقوم الاستلزام العرفي على ما تواضع عليه الناس في استعمالهم لبعض الألفاظ والتراكيب اللغوية، فهي تمدّهم في كثير من الأحيان ببعض الدلالات المخصوصة التي لا تكاد تتغير، ومن الممكن أن تزول تلك المعاني مع زوال سياقاتها. ويرى ليفنسن أن الاستلزام العرفي "لا يستحق الكثير من العناية، فهو يمثّل قصور علم الدلالة في احتواء أو تفسير كل المعاني العرفية الوضعية للألفاظ المستعملة في اللغة".(١).

ويقدم غرايس مثالين عن الاستلزام العرفي:

– الأول في لفظة لكن"but" : "هذا فستان جميل، نور لن ترتديه" // "هذا فستان جميل، **لكن** نور لن ترتديه، "فالمتلقي يدرك أن كلمة "لكن" تجعل أن الجملة التي سترد بعدها مباينة لما سبقها.

– أما المثال الثاني الذي قدّمه غريس عن الاستلزام العرفي فهو في كلمة "لذا" أو "لهذا" therefore ، فقولنا: "إنّه طفل، هو لطيف جدًّا"// "إنّه طفل، لهذا هو لطيف جدًّا"(٢).

أمّا الاستلزام التخاطبي فهو استلزام يعتمد أساسا على السياق وأحوال المتخاطبين، وهو على ضربين:

– الاستلزام المحادثي، وهو مرتبط بسياق التلفظ، إذ كلّما ازدادت معرفة المرء بذلك السياق استطاع أن يكون تواصله ناجعا ومثمرا؛ ولذلك ينبغي أن توجه اللغة

(١) هشام عبد الخليفة، نظرية التلويح الحواري بين علم اللغة والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي، ناشرون، بيروت: مكتبة لبنان، ط١، ٢٠١٣، ص ٣٧.

(٢) علا هاني صبري وعبد الله خليف خضير، الاستلزام الحواري لدى غرايس، دراسة لنماذج مختارة من شعر محمد بن حازم الباهلي، مجلة آداب الرافدين، العدد ٩١، جامعة الموصل كانون الأوّل، ٢٠٢٢، ص ١٢٥.

والسياق المشترك المتلقي إلى تخمينات، ما لم يثبت تعطيل المتكلم مبدأ التعاون وقواعده"[١]. ويتفرع هذا الضرب من الاستلزام بدوره إلى فرعين:

• استلزام معمّم وهو الذي لايُحتاج فيه إلى معارف مسبقة مرتبطة بسياق اللفظ، و"إنّما يولّده الشكل اللغوي وبهذا الاعتبار فإن شدة ارتباطه بشكل العبارات ومحتواها تجعله عرضة للالتباس مع المستلزمات الخطابية المعرفية"[٢]. وقد مثّل غرايس على الاستلزام المعمم بقوله: "قابلت امرأة بالأمس". وتفسير ذلك أن الشيء المذكور ليس له علاقة مباشرة بالمتكلم، وهو يدخل في باب المشترك المعمم. فهذه المرأة التي قابلها المتكلم تبدو خارجة عن أي صلة به، فهي امرأة وكفى.

• أمّا الفرع الموازي لهذا الاستلزام فيسميه غرايس بالمخصص، وهو "الاستلزام الذي يتولد نتيجة حدوث خرق لإحدى قواعد مبدأ التعاون"[٣].

– أمّا الاستلزام غير المحادثي فيشمل هذا الضرب الجوانب الاجتماعية والمادية والتهذيبية بشكل عام، غير أن غريس قد اكتفى في هذا الصنف بالإشارة إليه دون أن يفصّل فيه القول، ومن المرجح أن الاستدلال عن الاستلزام غير المحادثي يتمّ بالاستناد إلى المعاني الوضعية للأقوال والمقولات التخاطبية وهي ترتبط بمسلمات غير محادثية. لقد استبعد غريس إذن في دراسته لأنواع الاستلزام الجوانب الاجتماعية والمادية والتهذيبية وغيرها من الجوانب التي منحها مكانة ثانوية؛ لأنّها بالنسبة إليه من درجة ثانية. وهو أمر جلب إليه الكثير من الانتقادات، من ذلك أن طه عبد الرحمن قد رأى في هذا الإجراء إهمالا واضحا

(١) ثروت مرسي، في التداوليات الاستدلالية، قراءة تأصيلية في المفاهيم والسيرورات التأويلية، كنوز المعرفة، ط١، ٢٠١٨، ص ٢٥٢.

(٢) جنان سالم البلداوي، الاستلزام الحواري نحو مقاربة تداولية معرفية للخطاب القرآني، دار قناديل للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢١، ص ٤٧.

(٣) حسن بدوح، المحاورة مقاربة تداولية، إربد: عالم الكتب الحديثة، ط ١، سنة ٢٠١٢، ص١٦١.

لأثر هذه الجوانب في العملية التخاطبية، وهو ما يخل بمبدأ التعاون الذي شدّد غرايس نفسه على أهميته التواصلية. وأن التعويل فقط على الجانب التبليغي لهذا المبدأ من شأنه أن يضعف الاستلزام التخاطبي نفسه، ورغم أن غريس قد لمّح للاستلزام غير المحادثي وأشار إلى أثر الجوانب الاجتماعية، فهو لم يفصّل ذلك ولم يعتن بالمسألة عنايته بالاستلزام المحادثي. ومن بين هذه الإشارات قوله: "لتكن متأدبا." وهو –حسب طه عبد الرحمن دائما–" لم يقم للجانب التهذيبي كبير وزن"(١). بل إنّه جمع الجانب الاجتماعي والجمالي، ورأى أنّ هذه الجوانب لا تستجيب للغرض المنتظر من العملية التخاطبية، وأولى في مقابل ذلك عنايته للجانب التبليغي للخطاب المحادثي، وقد لاحظ ذلك صلاح إسماعيل ورأى أن قواعد غريس " لم تكن غاية تطلب لذاتها، وإنّما كانت وسيلة يبتغيها الفيلسوف ليصل إلى أغراضه"(٢).

٤– الاستلزام في الأمثال العربية:

اعتنى القدماء بالأمثال وخصّوها بالتعريف والنعت، فذهب الفارابي إلى أن المثل هو "ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتّى ابتذلوه فيما بينهم وفاهوا به في السرّاء والضرّاء واستدروا به الممتنع، ووصلوا به إلى المطالب القصيّة، وتفرّجوا به عن الكرب والمكربة وهو من أبلغ الحِكمة"(٣).

ولئن ركّز الفارابي على الجانب الاجتماعي للأمثال، فإنّ صاحب العقد الفريد قد نوّه بمكانتها يقول: "كفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد والمثل"، والمثل، حسب تعريفه، هو "وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني التي تخيّرها

(١) انظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، سنة ١٩٩٨، ص٢٣٩.

(٢) صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، ص٨٩.

(٣) أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي، ديوان الأدب، تحقيق د. أحمد مختار عمر وإبراهيم أنيس، القاهرة: مؤسسة دار الشعب، ط١، ٢٠٠٣، ص٧٤.

العرب"[١]. وركّز السيوطي في مقابل ذلك على جانب الاستعمال في الأمثال معتبرا أن "المثل هو جملة مقتضبة من أصلها أو مرسلة من ذاتها تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول فتنتقل عمّا وردت فيه إلى كلّ ما يصح قصده بها"[٢].

فالأمثال إذن هي أقوال مختصرة الألفاظ مكتنزة الدلالات عميقة المعاني، تنم عن خبرة ودراية بأمور الدنيا وشواغلها المختلفة، ولا تكاد أمّة من الأمم تخلو منها، فكأنّ الأمثال هي مجمع مكتسبات الإنسان في مسيرته الطويلة، فهي ذاكرته الجماعية ودليل ثقافته الواسعة. فالمثل هو "ضرب من ضروب التعبير عمّا تزخر به النفس من علم وخبرة وحقائق واقعية"[٣].

ونظرا إلى ما يكتسيه المثل من خصائص لغوية ودلالية مميّزة لعل من أبرزها خاصية الاختزال والتكثيف، فقد بدا أقرب التعابير اللغوية لتحقق الاستلزام التخاطبي، ففي الغالب تكون وراء المثل مقاصد أبعد من المعنى المباشر تجعله يتجاوز السياق الذي قيل فيه ليستحضر في سياقات أخرى مشابهة مهما اختلف المتكلمون وتغيرت الظروف المحيطة بعملية التخاطب. وقد انتبه السيوطي إلى هذا الجانب المهمّ في قولته السابقة عند تصريحه بأنّ الأمثال "تنتقل عمّا وردت فيه إلى كلّ ما يصح قصده بها"، ويقود ذلك إلى الافتراض بأن الاستلزام التخاطبي هو أبرز ما يميّز الأمثال، وسنحاول اختبار هذه الفرضية بإجراء دراسة تطبيقية على نماذج من الأمثال العربية المستقاة من "مجمع الأمثال" للميداني،

(١) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية ج٢، ط١، ١٩٨٣، ص ٢٠٣.

(٢) الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ٢٠٠٤، ج١، ص ١٣.

(٣) أحمد أبو زيد وآخرون، دراسات في الفلكلور، مطبعة القاهرة: دار نشر الثقافة، ١٩٧٢، ص ٧٢.

وتحليلها وذلك بالنظر في ما يحدث لنص المثل من خرق لقواعد التواصل التي حدّدها غريس، وما ينتج عن ذلك من استلزامات تخاطبية.

أ–خرق قاعدة الكيف في المثل:

كثيرا ما أكد غرايس أهميّة قاعدة الكيف باعتبارها قاعدة أساسية من القواعد المحققة لمبدأ التعاون، وهي تفترض الصدق في القول ونزاهة المخاطب، فضلا عن ضرورة امتلاك صاحبها "الحجج الكافية لإثبات ما يثبته"(١). وعليه لا يجوز لهذا المخاطب أن يكذب أو يقول ما يعتقد أنّه خاطئ أو يعجز عن البرهنة عليه. ويعتبر غريس أن من يخرق هذه القاعدة فإنّه يكون قد أنتج استلزاما حواريا. وقد تحقق خرق هذه القاعدة في الأمثال العربية، ويمكن إبراز ذلك من خلال المثلين التاليين:

– **المثل الأوّل:"أَجْوَعُ مِنْ كَلْبَةِ حَوْمَلَ"**.

يتضمن هذا المثل مفاضلة بين طرفين أحدهما حاضر في الخطاب تمثّله "كلبة حومل" والثاني غائب وغير محدّد، ويفترض فيه أن يكون أكثر جوعا من الطرف الأوّل. والسياق الأوّل الذي ورد فيه هذا المثل أن امرأة من العرب كانت تُجيع كلبة لها فتربطها للحراسة ليلا وتطردها نهارا، وتقول: "الْتَمِسِي لنفسك لا مُلْتَمَسَ لك، فلما طال ذلك عليها أكلت ذَنَبها من الجوع"(٢)، فصار هذا الموقف مثلا وقيل: أجوع من كلبة حومل.

وقد استعمل الشاعر الأموي الكميت بن زيد هذا المثل في شعره معرّضا ببني أمية، وقد بدت سياستهم مع الرعية كسياسة حَوْمَل لكلبتها يقول:

---

(١) آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٣، ص٧٨.

(٢) الميداني، مجمع الأمثال، ص ٢٨٣.

كَما رَضيَتْ جُوعاً وسوءَ رِعاية لكَلْبتها في سالِفِ الدَّهر حَوْمَلُ
نُبَاحاً إذا ما الليلُ أَظْلَمَ دونَهَا وغنما وتَجْوِيعاً، ضلاَلٌ مُضلل[1]

الفعل الكلامي	الاستلزام
الإخبار عن قصة تجويع حَوْمَلَ كلبتها	لقد أساء بنو أمية معاملة رعيتهم وهم أشبه بحومل في معاملة كلبتها.

ومن الواضح أن مراد الشاعر من عقد المقارنة يتجاوز إبراز المعنى اللغوي الظاهر لإجاعة حومل لكلبتها، فيخرق بذلك قاعدة الكيف ليعبّر بطريقة ضمنية عن معنى جديد مفاده أن سياسة بني أمية للرعية لا تختلف عن سياسة حومل لكلبتها. وهو لم يعبّر عن هذا المعنى الجديد بطريقة صريحة ومباشرة بل جعله استلزاما تخاطبيا يدركه من له علم بقصة المثل.

– **المثل الثاني: "أَجْمَلُ مِنْ ذِي العِمَامَةِ"**.

اقترن هذا المثل برجل من رجال أهل مكة وهو سعيد بن العاص بن أمية، ويذكر صاحب الأمثال أنّه "كان في الجاهلية إذا لبس عمامةً لا يلبس قرشيٌّ عمامة على لَوْنها، وإذا خرج لم تبق امرأة إلا بَرَزَتْ للنظر إليه من جماله"[2].

الفعل الكلامي	الاستلزام
وصف ذي العمامة بالجمال الفائق.	الإشارة إلى العظمة ورفعة المكانة.

إذا اكتفينا بالمعنى الذي يبيحه ظاهر اللفظ، فإنّ المراد من الكلام في هذا المثل لا يتجاوز وصف ذي العمامة بالجمال الفائق. أمّا إذا استعمل المثل في سياقات مختلفة فإنه يقع خرق قاعدة الجهة، وبالتالي يدل المثل على معنى مغاير. فسعيد بن العاص بن أمية الذي اقترن به هذا المثل، وقد كان وسيما، وجماله آخاذٌ، لزمه أيضا لقب صاحب العمامة في إشارة إلى معنى العظمة

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

والسيادة وأن حاله ليست كحال غيره من الناس قيمة ورفعة، فخرج بذلك اللفظ من تصوير الجمال إلى الإشارة إلى العظمة.

ويذكر صاحب الأمثال أنّه لمّا آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان خطب بنتَ سعيد هذا إلى أخيه عَمْرو بن سعيد الأشدق، فأجابه عمرو بقوله:

فَتَاةٌ أَبُوهَا ذُو العِمَامَة وابنُهُ أَخُوهَا فَمَا أَكْفَاؤُها بِكَثِيرِ

وزعم بعض أصحاب المعاني أن هذا اللقب إنما لزم سعيدَ بن العاص كنايةً عن السيادة، قال: وذلك لأن العرب تقول "فلان مُعَمَّم" يريدون أن كل جناية يجنيها من تلك القبيلة والعشيرة فهي مَعْصُوبة برأسه، فإلى مثل هذا المعنى ذهبوا في تسميتهم سعيد بن العاص ذا العصابة وذا العمامة(١).

ويسمح لفظ العمامة بالخروج من الخاص إلى العام مما يجعل المثل قابلا للاستخدام في السياقات التي تفيد العظمة ورفعة الشأن.

ب– خرق قاعدة الكم في المثل:

تقوم قاعدة الكم على مبدأ الاقتصاد والاكتفاء بما يكون ضروريا نافعا محققا للغاية والقصد، فإذا خرج المتكلم عن ذلك بالتقصير أو التكثير والزيادة يكون قد خرق القاعدة وعدل بالخطاب عن أصل ما وضع له. وتتوفر مدونة الأمثال العربية للميداني على العديد من النماذج التي جرى فيها خرق واضح لقاعدة الكم، فخرجت بذلك من الدلالة المباشرة إلى الاستلزام التخاطبي، ويمكن أن نبين ذلك من خلال مثلين:

– **المثل الأول: "أَوَّلُ الصَّيْدِ فَرَعٌ"(٢).**

الفرع في اللغة هو أوّل مولود للناقة، أي البكر، ولأهمية هذا المولود كان العرب يتبركون به فيتركونه حتّى ينمو ويشتدّ عوده، فإذا سمن ذبحوه وجعلوه قربانا

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١.

للآلهة تعظيما لجلالتها واعترافا بفضلها وطمعا في نيل رضائها. وكان الرجل يقول: إذا تمت إبلي كذا نَحَرْتُ أول نتيج منها، وكانوا إذا أرادوا نحره زَيَّنُوه وألبسوه، ولذلك قال أوس يذكر أزمة في شدة البرد.

وَشُبِّهَ الهَيْدَبُ العَبَامُ من الـ أقْوَامِ سَقْباً مُجَلِّلاً فَزَعَا(١)

قال أبو عمرو: يضرب عند أول ما يرى من خير في زَرْع أو ضَرْعٍ وفي جميع المنافع. ويروى: أول الصيد فَرَع ونِصَاب. وذلك أنهم يُرْسِلون أول شيء يصيدونه يتيمنون به، ويروى: أولُ صيدٍ فَزَعَه(٢).

إنّ ما يمكن ملاحظته هو أن المتكلم قد أنشأ مثلا ولم يكتف فيه بالاقتصاد في المعنى، وإنّما جعله يفيض بدلالات أخرى تتجاوز ما يظهره اللفظ في المستوى الأوّل، أي أنّه قد خرق قاعدة الكم الدلالي ووسّع من المعنى، ودليل ذلك أن هذا الفرع من الإبل لم يعد يقترن في ذهن المتلقي بالمولود الأوّل الذي تضعه الناقة، فيكون بكرها الأوّل، وإنّما تحصل في الذهن معانٍ أخرى، لعلّ أهمّها الذبيحة التي تقدم قربانا للآلهة وما يتبع ذلك من طقوس احتفالية، ومعنى ذلك أن المثل قد خرج عن المقدار الأوّل، وأن المتكلم قد عدل به من المعنى اللغوي الصريح إلى المعنى المستلزم.

وبتتبع السياقات التي يستخدم فيها هذا المثل يتّضح أنه المعنى الاستلزامي الذي ارتبط به هو ما يتصل بالولادة الجديدة لكلّ شيء فيه خير وزيادة نعمة.

– **المثل الثاني: "جَاؤُوا عَلَى بَكْرَةِ أَبِيهِمْ"**(٣).

ورد هذا المثل جملة فعلية مثبتة، نسب فيها الفعل إلى جمع غائب غير محدّد، وإذا وقفنا بهذا المثل عند دلالته اللغوية فإنّ المعنى الظاهر منه يكاد

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٥.

(٣) المصدر نفسن، ص ٢٦٨–٢٦٩.

ينحصر في الإخبار عن فعل منجز هو فعل المجيء المنسوب إلى جماعة من الناس أقبلوا كلّهم ولم يتخلّف منهم أحد. قال أبو عبيد: "أي جاؤوا جميعاً لم يتخلَّف منهم أحد"(١).

غير أن أهل اللغة قد اختلفوا في تفسير هذا المثل وحملوه على معان مختلفة، فقد قال غير أبي عبيد: "البَكْرَة تأنيث البَكْر وهو الفتيُّ من الإبل، يصفهم بالقِلَّة، أي جاؤوا بحيث تحملهم بكرة أبيهم قِلَّة، وقال بعضهم: البكرة ههنا التي يُسْتَقَى عليها، أي جاؤوا بعضهم على أثَرِ بعضٍ كدَوَرَان البكرة على نَسَق واحد، وقال قوم: أرادوا بالبكرة الطريقَةَ، كأنهم قالوا: جاؤوا على طريقة أبيهم أي يَتَقَيَّلُون أثرَه، وقال ابن الأعرابي: البكرة جماعة الناس، يقال: جاؤوا على بَكْرتهم، وبَكْرة أبيهم، أي بأجمعهم قلت: فعلى قول ابن الأعرابي يكون "على" في المثل بمعنى مع، أي جاؤوا مع جماعة أبيهم أي مع قبيلته، ويجوز أن يكون "على" مِنْ صلة معنى الكلام، أي جاؤوا مشتملين على قبيلة أبيهم، هذا هو الأصل، ثم يستعمل في اجتماع القوم وإن لم يكونوا من نسب واحد، ويجوز أن يراد البكرة التي يستقى عليها، وهي إذا كانت لأبيهم اجتمعوا عليها مُسْتَقِينَ لا يمنعهم عنها أحد، فشبه اجتماع القوم في المجيء باجتماع أولئك على بكرة أبيهم"(٢).

إنّ هذا الاختلاف في مستوى المعنى اللغوي هو الذي يفترض المعنى الاستلزامي، ذلك أن اتساع دائرة التفسير وما رافقها من اختلافات قد سمح في المستوى الثاني بتوفير معانٍ كثيرة غير ما يفهم من ظاهر اللفظ أي أن المتكلم قد خرق قاعدة الكم وفتح المجال واسعا أمام القارئ ليستخلص ما كان مستلزما من المعاني الثواني. وحين نحصي المعاني التي اقترنت بهذا المثل فإنّنا نظفر بدلالات موسعة منها أن المقصود "بكرة أبيهم" ليس الهيئة التي جاؤوا عليها

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فحسب وإنّما العدد أيضا وهو هنا جمع القلّة. ومن الممكن كذلك أن يُحمل المثل على معنى التتابع أي أنّهم قدموا الواحد تلو الآخر، وقد يفسر المثل أيضا على كون بكرة أبيهم تعني أنّهم جاؤوا مع جماعة أبيهم أو غير ذلك من المعاني، بما يدل على أن المتكلم لم يقتصد في المعنى بل وفّر المعاني المختلفة، فخرق بذلك قاعدة الكم ووسّع من دلالاتها.

ج – خرق قاعدة الملاءمة في المثل:

يرى بول غرايس أن هذه القاعدة مهمّة للغاية في عملية التواصل ويعدّ خرقها عدولا عن مبدأ التعاون، وللإشارة فإنّ هذه القاعدة تنهض أساسا على مبدأ التناسب بين ما يتلفظ به المتكلم وموضوع الكلام نفسه، وعليه فإنّه لمّا يتكلّم المخاطب بكلام لا علاقة له بموضوع الحوار الأصلي، فمن الممكن أن ينصرف ذهن السامع إلى دلالات مستلزمة يقتضيها مقام التلفظ.

– **المثل الأوّل: "إنَّ البُغَاثَ بأَرْضِنَا يَسْتَنْسِر"**(١).

البغاث ضرب من الطير، وهو لضعفه وجبنه شبيه بطير الرخمة والجمع منه بغْثان، أمّا قوله "استنسر" فالمقصود من ذلك أنّه يتشبّه بالنسر في القوّة ويحاول محاكاة أفعاله في الصيد رغم كونه من ضعاف الطير.

الفعل الكلامي	الاستلزام
تقليد البغاث للنسر	كل ضعيف يتشبه بمن هو أقوى منه.

يلاحظ أن المثل يحمل دلالتين: الأولى بسيطة تبرز في ظاهر اللفظ فلا يجد القارئ أو السامع عناء في فهمها على اعتبار أنّ البغاث والنسر متقابلان في القوة والضعف. أمّا الدلالة الثانية فهي تنهض أساسا على خرق قانون الملاءمة، وذلك عند استخدام المثل في سياقات أخرى تتعلق بشخص ضعيف يتظاهر بالقوّة أو

(١) المصدر نفسه، ص ١٨.

الشجاعة، فيكون المعنى المقصود من قبيل الاستلزام التخاطبي الذي يحدّده السياق.

– **المثل الثاني: "إِنَّمَا هُوَ كَبَرْقِ الْخُلَّبِ"**[١].

ورد هذا المثل جملة اسمية مؤكدة مرتين واحدة بالقصر "إنّما" وأخرى بضمير الفصل "هو"، فضلا عن وجود "كاف" التشبيه التي عقد بها المتكلم مشابهة بلاغية رام بها إظهار التماثل بين عنصرين متقاربين في الصفة. وتفسير كلّ ذلك من الجهة اللغوية أنّه يُقال: بَرْقٌ خُلَّبٌ بالنعت، وبرقُ خُلَّبٍ بالإضافة، وهو البرق الذي لا يتبعه غيث، فهو كاذب ومخادع. والخلَّبُ أيضاً: السحاب الذي لا مَطر فيه، فإذا قيل: برق الخلب، فمعناه برقُ السحابِ الخلب[٢]. ويضرب هذا المثل لمن يَعِدُ لكنّه ينقض وعده ويخلفه.

الفعل الكلامي	الاستلزام
تشبيه الفعل الكاذب بالبرق الخلّب	المرء يعِدُ ثم يخلف ولا ينجز وعده.

ومن الواضح أن الاكتفاء بالمعنى الذي توفره اللغة يقف بالخطاب عند قاعدة التلاؤم، غير أن غرايس يشدّد على أنّ خرق هذه القاعدة يجعل الكلام أبلغ ومقاصده أنفذ في ذهن السامع، وبالفعل فإنّ المتأمّل في نص المثل يلاحظ أن التشبيه جاء ناقصا؛ لأن المشبه به وقعت تسميته والتصريح به بينما ورد المشبه مبهما من خلال ضمير الغائب هو، ولعل ذلك ما يجعل نص المثل قابلا للاستخدام في سياقات عديدة ولإنتاج معانٍ استلزامية مختلفة.

د – خرق قاعدة الجهة في المثل

تقتضي هذه القاعدة الوضوح في الخطاب وعدم النزوع إلى الغموض وتجنب ما يعسر من المبهمات اللغوية التي تستوجب جهدا لفك شفرات الكلام وتفكيكها،

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسه.

وذلك تبعا إلى أن المتكلّم ملزم بالبيان لتحقيق مبدأ التعاون. مما يجعله حريصا على ترتيب كلامه وفق مسار واضح وترتيب محكم. غير أن هذه الوجهة لا تكون دائما على نحو ما ينتظر السامع أو القارئ، فالمتكلم يجوز له أن يعدل عن هذا المسار، ويخرق القاعدة وينشئ معاني أخرى مستلزمة غير التي تظهرها الألفاظ أوّل الأمر. ومن الأمثال العربية التي وقع فيها خرق قاعدة الجهة نكتفي بتحليل مثلين:

– **المثل الأوّل:"رَكِبَ المُغَمِّضَةَ"**(١).

اقترنت عبارة مغمّضة في اللغة بالناقة، وكان من عادة العرب إذا أرادوا سقي الإبل ماء أغمضوا عيونها بقطعة من القماش، فإذا وردت الحوض ترده مغمّضة . قال صاحب الأمثال: أصلها الناقة ذِيدَتْ عن الحَوْضِ، فغمضت عينيها، فحَمَلت على الذائد، فوردت الحوض مغمضة، وروى عن أبي النجم قوله: "يرسلها التغميض إنْ لم تُرْسَلِ"، وقال بعضهم: إيّاك ومغمضات الأمور، يعني الأمور المشكلة، ويقول الكميت:

تَحتَ المغمِّضة العَمَا سُ ومُلْتَقَى الأسَلِ النَّوَاهِلْ(٢)

ولكن المعنى اللغوي المباشر المتصل بإغماض الناقة وذودها عن حياض الماء، لم يعد هو المقصود بالمثل، وإنما أصبح المراد به معنى جديدا يفرضه السياق، وأضحت له معانٍ أخرى مستلزمة، نتجت عن خرق قاعدة الجهة وتولّدت من تنوّع السياقات التي يتداول فيها المثل.

الفعل الكلامي	الاستلزام
ركب الناقة المغمضة	اختار سبيلا غير واضح

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٤.

(٢) المرجع نفسه الصفحة نفسها.

ومن السياقات التي يطلق فيها هذا المثل عندما يلحّ المرء على اختيار وجهة غير مألوفة، أو السير في طريق لا عهد له بها.. وشبيه بهذا المثل ما ذكره أيضا الميداني حول من يخالف الناس فيما يصنعون، فتراه يشقّ طريقا غير التي يسلكها الناس، فيكون حاله كمثل حال الضبع الذي إذا رأى شخصا راكبا خالفه الطريق وأخذ طريقا أخرى خوفا وجزعا، وهذا أمر يخالف ما يصنعه الذئب الذي لا يسلك مسلك الضبع، فتراه إمّا يختفي أو يواجه. ولذلك قال الميداني "**إنّما أنتَ خلاف الضبُع الراكبَ**(١)".

إنّ المعنى اللغوي في هذا المثل واضح القصد أي أنّه يستجيب في ظاهره إلى قاعدة الجهة التي تفترض وضوح المراد، والمنتظر من ملفوظه أن يوجّه المتلقي إلى معنى ظاهر هو سلوك الضبع في التعامل مع الإنسان ولاسيما عندما يفطن إلى خطر يهدد حياته فتراه يهرب خوفا وجزعا. إلّا أن المتأمل في هذا المثل بإمكانه أن يلاحظ أيضا أن المتكلم قد عدل بمقصود الخطاب ولم يلتزم بقاعدة الجهة أي أنّه خرقها وأنشأ استلزاما، ودليل ذلك أن المراد من مخالفة الضبع لطريق الإنسان ليس مجرّد الإحالة على خوفه من الخطر المحدق به، وإنّما هو التنبيه على كلّ من يخالف الآخرين في الرأي والتصور، فيكون غير ملزم بما يجمعهم أو مطالب بتنفيذ ما يصنعون، بل إنّه يشق طريقا أخرى يكون قد أسسها لنفسه فلا يشاركه فيها أحد.

- **المثـل الثّاني: "مَخَالِبُ تَنْسُرُ جِلْدَ الأَعْزَلِ"**(٢).

تضرب العرب هذا المثل لمن يجور على غيره ويظلمه دون سبب أو لأنّه أقوى منه فلا يقدر ذلك الضعيف على دفع ظلم الظالم لأنّه أعزل لا سلاح له يستعين به على دفع المظالم.

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٤٣.

يبدو هذا المثل أوّل وهلة واضح المعنى بيّن الدلالة، مستجيبا لقاعدة الجهة التي تفترض وضوح المقصد، ودليل ذلك من الناحية اللغوية أن المقصود بعبارة "تنسر" أي تمزّق. والمعنى المحمول من ظاهر اللفظ يثبت أن الخطاب يستجيب لقاعدة الجهة من حيث إنّها تفترض وضوح الغاية، ومن المعلوم أنّ للنسور مخالب حادّة تستعين بها على تمزيق لحوم الفرائس، أمّا عبارة "الأعزل" فهي أوضح لأنّ الأعزل يكون دائما منزوع السلاح أو لا قوة له يدفع بها هجوم العدو عليه. وجاء في شرح هذا المثل قول المؤلف: النَّسْر: نَتَف البازي اللحمَ بمَنْسِرِه، أي مِنَقَاره، والأَعْزَلُ: الذي لاَ سِلاَح معه، والطائر الأَعزل الذي لاَ قُدرة له على الطيران، ومنه قول لَبيد:

لما رأى لُبَدُ النُّسُورَ تَطَايَرَتْ رَفَعَ القَوَادمَ كالفَقِيرِ الأَعْزَلِ(١)

غير أن المتأمل في هذا المثل بإمكانه أن يتفطن إلى أن المتكلم قد خرق قاعدة الجهة ولم يلتزم بشروطها، ويتجاوز المثل في استعمالاته هذه المعاني اللغوية المباشرة ليدل على كلّ من يظلم غيره ولاسيما إذا كان ضعيفا لا حول له ولا قوّة، فيكون مثله كمثل من يمزّق لحمه بمخلب نسر حاد، أي أن المتكلم عدل عن قاعدة الجهة، وأنشأ في مقابل ذلك معنى مستلزما يثبت به عملية الخرق، ووجه ذلك أن الإشارة إلى مظاهر الظلم بين الناس، وبالتحديد جور القوي على المستضعف الذي لا يقدر على دفع شرّ الجائرين؛ وذلك بسبب افتقاره لما به يدافع عن نفسه، فيتعرض بالتالي إلى نهش الظالمين تماما مثل الطير الأعزل الذي تكون حياته لقمة سائغة في فم النسور الجوارح. فالمتكلّم إذن قد أنشأ خطابا وأوهم بأنّه يلتزم بإحدى قواعد التعاون، ولكنّه خرق القاعدة وغير وجهة الخطاب فعدل بالكلام عن جهته ومقصده الأوّل.

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الخاتمة

لقد قادنا النظر في مسألة الاستلزام التخاطبي في مدونة الأمثال العربية للميداني إلى جملة من النتائج يمكن ضبطها كالآتي:

- يعدّ مفهوم الاستلزام التخاطبي من أهم المفاهيم التي جاءت بها التداولية وبيّنت من خلالها أهميّة السياق في تشكيل المعنى وفهمه، وقد كان لبول غريس دور محوري في بلورة هذا المفهوم وتوظيفه.
- لم يستعمل اللغويون والبلاغيون القدماء مصطلح الاستلزام استعمالا صريحا، ولكنّهم كانوا على وعي بأنّ طريقة المتكلّم في تصريف الكلام يمكن أن تقود إلى إنتاج معانٍ جديدة تتجاوز المعاني المعجمية المباشرة.
- يتضمن مفهوم الاستلزام التخاطبي بعدا إجرائيا إذ يمكن تطبيقه على النصوص من خلال النظر في مدى التزام المتكلم بقواعد عملية التواصل أو خرقه لها. فكل خرق لقاعدة من القواعد التي حدّدها غريس تنتج عنه معاني ودلالات جديدة تندرج تحت مفهوم الاستلزام التخاطبي.
- تعد مدونة الأمثال من أفضل المدونات التي يتجلى فيها الاستلزام التخاطبي بأنواعه المختلفة، فالمثل حمّال معانٍ كثيرة مستلزمة تكون– على الأغلب– متوارية خلف ألفاظه.
- تتميّز نصوص الأمثال بخاصيتي الإيجاز والتكثيف، فهي تعبّر عن معانٍ متّسعة بألفاظ قليلة، كما أنها قد تستعمل في سياقات مختلفة للتعبير عن معانٍ غير المعاني التي عبّرت عنها في أوّل استخدام لها، مما يؤهلها لأن تكون مجالا خصبا لمزيد من الدراسات اللسانية التطبيقية للخروج بنتائج مهمة ومفيدة في مجال التخصص نفسه.

**

المصادر والمراجع

المصادر:

- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ٢٠٠٤.

المراجع:

- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل للطباعة والنشر، ط٥، ١٩٨١.
- ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤.
- أبو عمر شهاب الدين بن عبد ربّه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، ج٢، ط١، ١٩٨٣.
- أبو السعود، العمادي محمد بن محمد مصطفى، إرشاد العقل السليم في مزايا القرآن الكريم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت.
- أبو زيد، أحمد وآخرون، دراسات في الفلكلور، القاهرة: مطبعة الثقافة، ١٩٧٢.
- إسماعيل، صلاح، نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، القاهرة: دار قباء الحديثة للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٧.
- البلداوي، جنان سالم، الاستلزام الحواري نحو مقاربة تداولية معرفية للخطاب القرآني، دار قناديل للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢١.
- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تصحيح محمد عبده ومحمد محمود الشنقيطي، بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٩٩٥.
- الخليفة، هشام عبد، نظرية التلويح الحواري بين علم اللغة والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي، بيروت: ناشرون، ط١، ٢٠١٣.
- السكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي أبي يعقوب، مفتاح العلوم، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط٢، ١٩٩٠.

- الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم، ديوان الأدب، تحقيق د. أحمد مختار عمر وإبراهيم أنيس، القاهرة: مؤسسة دار الشعب، ط١، ٢٠٠٣.
- بدوح، حسن، المحاورة مقاربة تداولية، عالم الكتب الحديثة، إربد، الأردن، ط١، ٢٠١٢.
- بلانشيه، فيليب، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، دمشق– سوريا، ٢٠٠٧.
- حسّان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط،٣، ١٩٩٨.
- ذهبية حمو الحاج، مدخل إلى التداولية، مجلة الكوفة، العدد التاسع، ٢٠١٤.
- روبول، آن وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة لطيف زيتوني، ببيروت: المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٣.
- صبري، علا هاني وعبد الله خليف خضير، الاستلزام الحواري لدى غرايس، دراسة لنماذج مختارة من شعر محمد بن حازم الباهلي، مجلة آداب الرافدين، العدد ٩١، جامعة الموصل كانون الأوّل، ٢٠٢٢.
- صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، بيروت: دار الطليعة، ط١، ٢٠٠٥.
- عبد الرحمن، طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨.
- ليونز، جون، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة– آفاق عربية، ط،١ ،العراق، ١٩٨٧.
- محمود، أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي، القاهرة: دار المعرفة الجامعية الجديدة، ٢٠١١.
- مرسي، ثروت، في التداوليات الاستدلالية، قراءة تأصيلية في المفاهيم والسيرورات التأويلية، كنوز المعرفة، ط١، ٢٠١٨.

* * *